الفصل الخامس

- لن أستطيع أن أكون ديكتاتورا
- جمال عقل الثورة ومدبرها ورائدها
- انتصر لنا جمال

www.anwarsadat.org

لن أستطيع أن أكون دكتاتورا

لقد انتصر عمك جمال فى كل هذه المعارك يا بنى ، وسينتصر باذن الله دائما ، لانه صادق مع ربه ومع نفسه ويحاسب نفسه دائما اقسى وأعنف حساب ، فى الوقت الذى يتلمس فيه لغيره كل أبواب العفو والغفران .. يحفظ العهد ويصدق الوعد ، و يخلص الود ، ويتقى ربه فى سره قبل العلن.. لذلك أيده الله ، وأزره وناصره .

وعمك جمال يا بنى هادى دائما .. ويعرف تماما ما يريد

فبعد أن أنتخب بالاجماع رئيسا للهيئة التأسيسية طرح للمناقشة موضوعا وصفه بأنه " حيوى وخطير" .

فقد طلب من الهيئة التأسيسية أن تقرر الفلسفة التى سيقوم عليها الحكم فى البلاد ، بعد أن أصبح ذلك مسئولية مباشرة للهيئه التأسيسية .

وفسر ذلك بأن هناك اليوم فلسفتين احداهما هى الديمقراطية والاخرى هى الديكتاتورية .

وأخذ فى شرح مزايا وعيوب كل فلسفة .. وكانما كان يلقى محاضرة من محاضراته التى كنت أستمع له فيها فى مدرسة الشئون الأدارية .

وبعد أن أنتهى أخذ يعطينا الكلمة واحدا واحدا ، بترتيب الجلوس ، لكى يدلى كل برأيه .

وأذكر يا بنى أننا انطلقنا جميعا فيما عدا عمك خالد محيى الدين الذى لـــم يكـــن موجودا ، وكان بالاسكندرية.. اقول أنطلقنا جميعا ندلل بـــالحجج والبـــراهين علـــى فساد الديمقراطية .. ولم تكن تعوزنا فى هذا الامر الحجج ولا البراهين .

فالحياة الديمقراطية التى عاشها الشعب منذ عام 1923 الىعـــام 1952 عنـــدما قامت الثورة ، لم تكن الا سلســـلة محكمـــة الحلقـــات مـــن الفســـاد ، والرشـــوة ، والمحسوبية، تفرقت فيها كلمة البلاد ..

وبدلا من أن يكون الكفاح موحدا ضد بريطانيا التى كانت تحتل البلاد بجيوشها، وتفرض عليها استعمارا أذل من كرامتها ، وسلب آرزاقها، ومنع الشعب من التقدم، والعلم، والحياة .. نرى بدلا من ذلك أن الكفاح أصبح بين أبنـــاء البلـــد مـــن اجـــل المنصب ، والحكم والجاه ...

كان هناك دستور .. ولكن هذا الدستور كان مسجونا من أول يوم صدر فيـــه ، حين قرر الامر الملكى لصدوره انه "منحة" من الملك .

وبعد أن طبق هذا الدستور.. شهدنا جميعا كيف كانت ترتكب باسمه الخيانات .. وكيف كانت تلجأ اليه الاحزاب لكى تجعل من الاحقاد ، والمطـــامع ، والاســـتغلال ، أعمالا قانونية ، وهو الذى كان مفروضا فيه ان يحمى الشعب من حكامه.

وكان هناك ملك حدد له الدستور مكانه، يملك ولا يحكم ولكننا على العكس من ذلك ، رأينا الملك يحكم قبل أن يملك..

فانه نتيجة للصراع الحزبى الذى أوجدته الديمقراطية أصبح الامر تنافسا شخصيا بين الزعماء والاحزاب ، ليس لمصلحة الوطن . أو مصائره، وانما على الفوز بالحكم والسلطان.. كان الملك هو الذى يهب الحكم ويمنعه .. لذلك أصبح يسيطر علي النفوس والضمائر.

وشهدنا ــ وشهد العالم ــ أكبر مأساة خلقية تمثل على مسرح الحكم والسياسة فى مصر، بطلها ملك يخضع لشهواته ونزواته ، ومن حوله زعماء كان كل همهم أن يشبعوا فيه هذه النزوات ، باالأستسلام والخضوع والتطرف فى اظهار الولاء ، حتى ان زعيما متدينا طلب من الشعب فى يوم من الايام أن يتوجه معه الى قبلة جديدة هى جزيرة كابرى.. لكى يحيى الملك الذى كان يعربد هناك فى شهر رمضان .. ولم يكن ذالك الزعيم طبعا يحسب فى ذلك الوقت حساب الشعب ، وانما كان ، كل ما يحرص عليه هو عبادة ذلك الصنم حتى وهو يعربد ، من أجل البقاء فى الحكم ، والمحافظة على الصولجان .

وكانت هناك برلمانات .. وكان المنصوص عليه فى الدستور . هو أن الحكومة مسئولة أمام البرلمان .. ولكننا رأينا أنه منذ أن قامت تلك البرلمنات وهى المسئولة أمام الحكومات ، وبدا سباق فى الفساد والرشوة بين الوزراء وأعضاء البرلمانات ، كل هذا يجرى تحت قبة البرلمان . . وباسم الشعب الذى كان يجلس أولئك النواب على كراسيهم ليمثلوه .. فداسوا مصالحه ، وحطوا من كرامته ، واندفعوا فى تيار المنافغ الشخصية ، والنزوات الحزبية .

كل هذا كان يطلق عليه فى مصر، قبل الثورة ، كلمة "الديمرقراطية " .

والعجيب ان بريطانيا كانت تسعد جدا بتلك الديموقراطية وتعتبرها امرا حيويا للتقدم وٱلحرية ، ولم يكن يخفى علينا نحن ابناء هذا الشعب ان حرص بريطانى ، على اطلاق كلمة ديموقراطية على هذه الفوضى المخزية ، انما كان سلاحا من احقر أسلحتها للسيطرة على هذا الشعب ، بشغل أبنائه بعضهم ضد البعض بهذه اللعبة التى تخلق الصراع فى الداخل بين أبناء البلد الواحد وتبقى هى معززة مكرمة فوق كل صراع تفرض أوامرها ، وسيطرتها واستعمارها .

أخذنا نردد كل هذه الآراء الواحد تلوالآخر .. وكان كل منا ينتهى آخر الامر بتلخيص رأيه وهو أن الديمقراطية أداة فساد . . ولا معدى لنا ولا مفر من أن نطبق الديكتاتورية لكى يمكن أن نبنى هذه البلاد بعد هذه الفترة الطويلة من الفوضى والفساد..

وبعد أن انتهينا جميعا من أبدائ أرائنا على النحو السالف بدأ عمك جمال يا بنى فى بسط رأيه .. وكنا جميعا نكاد نجزم أنه سيشاركنا الرأى .. بعد أن سيطر على جو الجلسة اجماع كل منا على رفض الديموقراطية .

بدأ عمك جمال هادئا كعادته يا بنى.. فتناول تفسير كلمة الديموقراطية أولا.. وضغط ــ مشددا ــ على أنها تعنى أن يكون للشعب الكلمه الاولى فى حكمه .

وأخذ يدلل على سلامة هذا المعنى من نفسى الحجج التى اورد ناها .

فلو أن ارادة الشعب كانت مفروضة على الحكام قبل الثورة ، لما استطاع الملك أن يعبث كل ذلك العبث بمساعدة الحكومات .

ولو ان أرادة الشعب كانت هى العليا ، لما اندفع الزعمـــاء والـــوزارات . فيمـــا اندفعوا فيه من خيانة لمصالح الشعب ومقدراته .

وبعد ان دلل على ذلك من الواقع طويلا بدا يتناول نقطة اخرى.. هى أن هـــذه الثورة قد قامت لتخلص الشعب مما عاناه .

من استبداد ومظالم ، لا لتبدأ عهدا جديدا من الاستبداد والمظالم.. فطبيعة شعبنا سمحة طيبة تنفر من القوة والتسلط عليها، مهما كان هدف هـــذه القـــوة، أو ذلـــك التسلط .

وانتهى يا بنى من هذه النقطة بتقرير حقيقة طلب منـــا ألا نتجاهلهـــا وهـــى أن مغزى قيام هذه الثورة يكون قد انتفى تماما ، اذا نحن فرضنا علـــى هـــذا الشـــعب ديكتاتورية ، لان النظام الذى كان يطبق قبل الثورة لم يكن ديمرقراطية انمـــا كـــان ديكتاتورية حزبية ، اطلقت على نفسها ديمرقراطية، ويكفى من ذلك ان نعـــود الـــى الوراء قليلا.. يوم تقرير ضريبة الأطيان بأثر رجعى فـــى أحـــد برلمانـــات العهـــد الماضى، لكى ندرك الى أى مدى كانت تطبق الحكومات شر أنـــواع الديكتاتوريـــة ، لأنها تقرر باسم البرلمان .

حتى لو اقتنعت بالديكتاتورية ثم

ثم انتهى الى النقطة الاخيرة ..

وهى انه لن يستطيع أن يكيف نفسه على أى نظام ديكتاتورى ، لان ذلك يتنافى مع طبيعته.. وقأل بالحرف الواحد :

" حتى لو أقتنعت بالديكتاتورية ، فأنا أحس اننى لن أستطيع أبدا أن أكون ديكاتورا أو حنى فردا فى نظام ديكتاتورى " .

وما أن انتهى عمك جمال يابنى من بسط رأيه على ذلك النحو حتى ساد الجلسة جو مشحون بالكهرباء والعصبية .

فألى اللحظة التى بدا فيها عمك جمال يبدى رايه لم يكن يساور احدا منا شك فى اننا متفقون تمام الاتفاق عل المنهج الديكتاتورى .. وانما تجرى المناقشة فقط ، لكى يكون تقرير الأمر بعد مناقشة كعادتنا دائما فى كل ما يعرض علينا من أمور ولكن حديث عمك جمال كان كالقنبلة يا بنى.. خاصة وان اللهجة التى تحدث بها اشعرتنا جميعا أن وراء كل كلمة وكل رأى أبداه تصميما صلبا.. ونحن نعرف أن عمك جمال لا يصمم يا بنى الا بعد تفكير وروية . فاذا ما صمم ، فان قوى الارض كلها لا تثنيه عن ذلك التصميم .

بدا لى يا بنى أن مصير الثورة كلها التى لم يكن قد مضى عليها الا بضعة ايام حققت فيها أولى خواتطها،أقول: بدا لى أن مصير هذه الثورة يتأرجح فى شدة وعنف .

وخطر لى خاطر، وهو:

ان تأجيل هذه المناقشة من غير أخذ الأصوات كما تقضى اللائحة ، قد يتح الفرصة لكى تهدأ نفوسنا جميعا فان أخشى ما كنت أخشاه، هو أن يقع بيننا تصدع خطير نتيجة للتصويت .. لاننى أعرف جمال يا بنى منذ أن كنا ضباطا صغارا .. وأعرف انه حين يقتنع بأمر، فهو لن يتزحزح .

ثم أفزعنى خاطر آخر.. هوأن عمك جمال سيتنحى بالتأكيد عن الاشتراك فى هذه الثورة اذا ما جاءت، نتيجة التصويت كما هو ظاهر.. فطلبت الكلمة .

وأخذت أتناول المناقشات التى دارت من زإوية قصدت بها " تمييع " المناقشة بقصد تأجيلها، ولا أذكر اليوم ما قلته ، وهو مثبت طبعا فى محاضر الهيئة.. ولكنى اذكر شيئا واحدا:

هو أن عمك جمال تنبه لما أعمده، فاندفع يهاجمنى فى عنف، مقررا أن المناقشة يجب أن تنتهى الى قرار، لأن الامر اخطر من الايبت فيه فى الحال.

واخذت الاصوات، وكانت النتيجة سبعة أصوات فى صالح الديكتاتورية وصوت واحد فى صالح الديمقراطية.. هو صوت عمك جمال .

وصوت غائب.. هو صوت عمك خالد محيى الدين ، الذى كان فى الاسكندرية ، وهكذا وقع ما كنت أخشاه .

وأعلن عمك جمال بعد النتيجة أنه يحترم قرار الاغلبية ويعلن استقالته ، وانسحابه من الثورة .

ودعا لنا بالتوفيق فى السير بها وبالبلاد ، ثم جمع أوراقه ، وغادر مبنى القيادة إلى منزله .

خرج جمال يابنى ، وبقينا نحن السبعة جلوسا الى منضدة الاجتماع وقد أذهلتنا المفاجأة !

لم يتحرك منا أحد ، ولم يتكلم منا أحد ، وانما أخذ ينظر بعضنا الى البعض فى صمت مطبق، وكأنما كانت عيوننا تنطق بما يجول فى ضمائرنا، بل لعل الصدمة كانت مروعة الى الحد الذى ألجمت فيه ألسنتنا وجمدت حتى التعبير فى عيوننا، فانسحاب عمك جمال على تلك الصورة يا بنى كان منطويا على كارثة مدمرة للثورة ، لجملة اعتبارات :

جمال عقل الثورة

أما الاعتبار الاول يا بنى فهو ان عمك جمال هو عقل الثورة ومدبرها ورائدها .

بمعنى انه الى هذه اللحظة مثلا بعد مضى عدة سنوات على قيام الثورة فان أحدا منا نحن الذين كنا فى مجلس قيادة الثورة لا يعلم بالضبط عدد الضباط الاحرار، ومن هم الذين خرجوا يوم 23 يوليو سنة 1952 ومن هم الذين لم يخرجوا الا فرد واحد هو عمك جمال .

وما زلنا بين الحين والآخر نسمع أسماء ضباط لا نعرفهم فيقول عمك جمال ان فلانا هذا خرج يوم23 يوليو وكان يقود الوحدة الفلانية ، وفلان هذا تأخر ساعتين عن موعد وصوله المنطقة الفلانية .

ولكن عمك جمال ــ والشىء بالشىء يذكر ــ يرفض الى يومنا هذا وسيظل يرفض أن يصرح بأسماء بعض الضباط ممن خانتهم أعصابهم فى اللحظة الاخيرة

فلم يشتركوا فى الثورة ساعة قيامها ايمانا منه بالمبادىء التى اختارها لنفسه، نفسى المبادىء التى جعلت من ثورة 23 يوليو عملا جديدا ، ونهجا مستقيما يقوم على الخلق ويتمسك بالمبادىء .

الفراغ الذى لا يملأ

أما الاعتبار الثانى يا بنى فهو أن انسحاب عمك جمال اوجد فراغا خطيرا لا يستطيع أحد منا أن يملأه ولا نستطيع نحن الثمانية الباقين جميعا أن نملاه . فالمسألة لم تكن مسألة انسحاب . عضو من الهيئة التأسيسية ، وانما هى انسحاب الرجل الذى أسس هذه الهيئة التأسيسية ، وهنا يجمل بى ان أحكى لك يا بنى عن تاريخ هذه الهيئة .

فكما قلت لك سابقا يا بنى تولى عمك جمال إمر هذه الثورة سنة 1943 وكان معه فى ذلك الوقت أعمامك بغدادى وخالد وحسن أبراهيم وكنت انا قد قبض على قى السنة السابقة ، أى سنة1942 ، وإلى ذلك التاريخ الذى تولى فيه عمك جمال مسئولية التنظيم اى سنة 1942 لم يكن هناك جهاز لهذا التنظيم وانما كانت هناك جماعات من الضباط تجمعهم الصداقة تارة والزمالة فى الدراسة تارة أخرى ويربط الجميع شعرر واحد هو كراهية السيطرة البريطانية التى اتخذت أشكالا متعددة سواء فى الجيش أو فى جميع فروع الحياة فى مصر مما أوقع البلاد بين أنياب استعمار سياسى واقتصادى واجتماعى كاد يقضى كل كيان هذا الشعب .

لذلك كانت تتسم كل خططنا بالحماسة عندما يقع حدث معين ، فمثلا عندما هجمت ايحناليا على مصر سنة 1940 كان أول ما تبادر إلى ذهننا هو أن ننتهز هذه الفرصة ونقوم بثورة نقضى بها على فلول البريطانيين الذين كانوا فى مصر خاصة وأن استعداد الجيوش البريطانية فى مصر فى ذلك الوقت كان ناقصا الى الحد الذى طلبوا فيه الى الجيش المصرى أن يعطيهم اسلحته ، وكادوا أن يتسلموها لولا ان رفضنا نحن الضباط الاصاغر ــ وقتذاك ــ تسليم أسلحتنا ونحن أحياء .

وكذلك حدث نفس التفكير، عندما سلمت فرنسا ، وعندما وصل روميل بجيوشه الى العلمين .

أى ان تنظيم الضباط الاحرار لم يكن يعتمد على جهاز بقد!ر ما كان يعتمد على الحماسة والعاطفة فى خططه .

قاعدة الانطلاق

ولكن عمك جمال ما إن تسلم المسئولية حتى . بدا يكون الجهاز او ــ القاعدة ــ التى لا بد من ايجادها لكى تنطلق منها الثورة وتظل بعد ذلك حصنا يدفع عن الثورة الدس والمؤامرات . وكان عمك جمال يصر على تكوين هذا الجهاز أصرارا شديدا مهما كان الوقت .

الذى يتطلبه هذ التكوين وكان يقول اننا اذا أفلحنا فى ايجاد جهاز قوى وانفقنا فى ذلك عمرنا كله فاننا نكون قد أدينا واجبنا كاملا نحو الاجيال المقبلة اذ سيكون من السهل عليهم أن يطلقوا الشرارة فقط فيبدأ الطرفان .

www.anwarsadat.org

من أجل ذلك ظل عمك جمال يعمل ليل نهار منذ سنة 1943الى سنة 1948 حيث وقعت الحرب الاولى مع اسرائيل ، ثم استأنف نشاطه بعد هذا سنة 1949 ، بعد عودته من الحصار فى الفالولجا . إلى أن كانت سنة 1950 حيث فرغ من بناء القاعدة الاساسية لتنظيم الضباط الاحرار فى شعب ولجان وأصبح الامر يتطلب ايجاد هيئة عليا للتنظيم ، وكان هذا هو بدء مولد " الهيئةالتأسيسية " .

أن الذى جمع أعضاء هذه الهيئة التأسيسية فرد واحد هوعمك جمال يا بنى ! اجتمع بهم فرادى أول الامر ثم جمعهم فى هيئة بعد ذلك ، لذلك لم أكن أبالغ حين قلت لك يا بنى أن انسحاب عمك جمال على تلك الصورة أوجد فراغا خطيرا لا يمكن ملؤه ، كل هذا بخلاف ما لعمك جمال من شخصية متزنة نحترمها جميعا وتعودنا أن نعتمد عليها فيما ، كان يقابلنا من مواقف وأزمات قبل قيام الثورة ، وتعودنا أن نجد فى أسلوبه دائما راحة وثقة وعمقا .

انتصر لنا جمال

أعود الى حديث السبعة الذين يجلسون حول منضدة الاجتماع فى مبنى القيادة فى كوبرى القبة ، فأقول لك يا بنى اننا امسكنا عن الحديث بعد انسحاب عمك جمال واستعضنا عن ذلك بالنظر الى بعض، ولا اذكر اليوم كم من الزمن مضى علينا ونحن على هذ الحال ، وانما ما اذكره هو اننا انتهينا الى قرار حاسم من خلال ذلك الصمت ، هو انه لابد أن يعود جمال رئيسا للهيئة التأسيسية ولتكن فلسفة الحكم هى الديمقراطية كما يريدها جمال وليست الديكتاتوريه كما نريدها نحن جميعا .

وكانت هذه المعركة هى اول معركة انتصر فيها عمك جمال يا بنى ، وهو لم ينتصر بالمعنى المادى الذى قد يتبادر الى الأذهان ، اى باملاء ارادته علينا ، وانما انتصر لنا ضد نفوسنا ، وانتصر لمصر فجنبها الدماء والأحقاد والويلات التى تلازم دائما الديكتاتورية وحكم الأفراد .

كانت هذه المعركة ايضا يا بنى هى اول تطبيق لمبادىء المدرسة الجديدة التى جعلت من ثورة 23 يوليو نهجا جديدا فى التاريخ ، فبرغم أن القوات المسلحة يرأسها ضباط شبان ــ هى التى قامت بها ، فان طلقة واحدة لم تطلق على أحد فى جميع مراحل الثورة سواء فى ليلة 23 يوليو ــ منذ قيام الثورة ــ أو بعد ذلك يوم 26 يوليو حين تنازل الملك عن العرش وخرج من البلاد .

ولم تنصب المشانق كما حدث فى الثورة الفرنسية مثلا .

ولم يقتل احد غيلة كما كان يحلو لمصطفى كمال فى تركيا أن يتخلص من اعدائه .

ولم يقذف بأحد فى أعماق السجون لكى يموت من غير أن يدرى أحد بأمره كما كان يفعل موسولينى .

وانما استخدمت القوات المسلحة كل ــ ثقلها ــ فى ارغام اعداء الشعب على التسليم من غير ان تكلف الشعب ارهاقا او أن تلجا الى الصلف والغرور حتى مع هؤلاء الاعداء الذين تساقطوا أمام الثورة كما تتساقط أوراق الشجر فى الخريف .

وحين عاد عمك جمال يا بنى الى مكانه منا على كرسى رئاسة الهيئه التأسيسية فى اليوم التالى تلبية لاصرارنا واجماعناعلى عودته . . اقول حين عاد عمك جمال لم يكن ذلك أيذانا ببدء تطور تاريخى خطير فى مصر وحدها ، وانما فى تاريخ

البشرية بأجمعها .. اذ أراد الله سبحانه وتعالى أن تنهار على يديه أ مبراطـــوريتين عرفهما العصر الحديث.. هما بريطانيا العظمى والاتحاد الفرنسى .

أنهارت على يديه هاتان القوتان يا بنى وهما تملكان من أسلحة الدمار والفتـــك أحدثها ، فى الوقت الذى لم يكن عمك جمال يملك الا ايمانا راسخا بربه وبوطنـــه ، تجلى فى أروع صورة يوم ان كانت الطائرات تقذف مدن مصر بالقنابل فكان عمـــك جمال يقول :

" الله اكبر من كل سلاح ، واقوى من كل من يصـــورله الغـــرور أنـــه أقـــوى الاقوياء " .

بهذا الايمان انتصر عمك جمال يا بنى لا لمصر وحدها وانما لكل الشعوب التـــى عانت طوال القرون السابقة من السيطرة الاجنبية وأستعمار الرجل الابيض الذى لم يعرف يوما الخلق ، ولا الضمير، ومن أجل ذلك شنوا ويشنون اليوم علـــى عمـــك جمال حربا يائسة ، استخدمت فيها برطانيا وفرنسا السلاح والعتا فلما فشلتا بـــدأت امريكا تكمل نفس المعركة بسلاح آخر هو سلاح الدس السياسى والأغراء بالدولار والتخويف بالاساطيل لكى تحقق نفس الاهداف ولكن بفارق بسيط هـــو ان امريكـــا تعمل لحســـاب امبراطوريتهـــا الجديـــدة الصـــاعدة بعـــد ان ايقنـــت مـــن انهيـــار الامبراطوريتين الغاربيتين .